

علماء ومفكرون عراقيون

محضر الأعراب

محمد الأمين الشنقيطي

دار الشروان للنشر والتوزيع

www.dawahmemo.com

بِهِ رَحْمَةِ الرَّحْمَنِ وَرَحْمَةِ الرَّحِيمِ
بِهِ مُسْلِخٌ مَذَاجِرٌ وَقَيْمَدٌ
بِهِ أَمْرٌ أَلَيْجَبِهُ وَاللَّهُ مُكْلِفٌ بِهِ
بِهِ لِبَرٌ

١٠

الشيخ محمد الدين الشنقيطي

شَهِيدُ الْمُسْلِمِينَ بِسِمِّ الْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِ
شَهِيدُ حَمْرَةِ وَرَبِيعَهُ لِسَهْرِ
حَمْرَهُ وَالنَّعْلَانِ لِأَنْبِعَمِ (الْعَزَّاتِ)

شيخنا وأخونا وزميلنا العالم القرآني الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي الحكيم عليه رحمة الله .

والأمين كالمختار من الأسماء التي كثيراً ما تقرن باسم محمد عند الشنقيطيين تبركاً وتنيناً وتعبيرأً عن حبهم لرسول الله ﷺ . والحكمي نسبة إلى القبيلة التي تنحدر من جدها الأعلى (جاكن) الذي يرجع في أصله إلى حمير .

ولد عام خمسة وعشرين وثلاثة وألف للمigration في (تبنة) من أعمال مديرية (كيفا) من موريتانية التي غلب عليها اسم شنقيط عند نسبة السكان، وهو اسم لقرية معروفة من أعمال مديرية اطار في أقصى الشمال من موريتانيا .

نشأ ، أحسن الله مثواه ، في جو يغلب عليه طلب العلم وروح الفروسية تأثيراً بالوسط القبلي الذي فيه غما وترعرع وشب ، وهو وسط تحضنه البدائية ، ويغلب عليه التنقل طلباً للمناخ الأصلاح ، وإلى هذا يشير أحد مشايخ الحكتيين إذ يقول :

وَنَحْنُ رَكْبُ الْأَشْرَافِ مُنْتَظِمٌ أَجْلُ ذَا الْعَصْرِ قَدْرًا دُونَ أَدْنَافِ
قَدْ اخْتَدَنَا ظَهُورُ الْعِيسَى مَدْرَسَةٌ بِهَا نَبِيَّنَ دِينَ اللَّهِ تَبَيَّنَا

فهو يصف قومه بأنهم (ركب) للدلالة على استمرار تنقلهم ، ويروى أدنى فرد من قبيلته أعلى مكاناً من أعلاطم رجال عصره ، وأنهم بالتالي مواطنون على مذكرة العلم ، لا ينعمون منه حل ولا ترحال ، إنه العلم الذي يثبت في القلوب دين الله ، ويوضح لطاليبه أحكام الشريعة .

ثقافته :

ينقل تلميذه الشيخ عطيه محمد سالم ، القاضي بمحكمة المدينة ، عن شيخه أنه يقول : توفي والدي وأنا صغير أقرأ في جزء عم ، وترك لي ثروة من الحيوان والمال ، فسكتت عند أخواي ، الذين حفظت القرآن على أحدهم عبدالله بن محمد الخطأ ، ولما أتجاوز العاشرة من سني .

وعلى منهج القوم في بادئتهم جعل يتدرج في مراحل العلم ، فتعلم رسم المصحف العثماني على ابن خال له ، ثم درس عليه التجويد على قراءة نافع برواية ورش ، ونال بذلك إجازة تصل قراءته برسول الله ﷺ وهو في السادسة عشرة .

وعلى طريقة السلف من حيث العناية بكتاب الله أتيح للشيخ أن يدرس على شيوخه في القبيلة الكثير مما يتعلق بحروفه ومفرداته وتراكيبه . وأولع بذلك حتى نظم بعض التذيلات على بعض المتون الخاصة بالقراءة .

وتتابع الشيخ دراسته ، فقرأ المختصرات من فقهه مالك الذي يعم معظم الشيشان الإفريقي وما حوله .. وأقبل على الأدب يدرسه على زوجة خاله الذي يتولى تغذيته بعلوم القرآن ، وأخذ عن هذه الشيخة أيضاً مباديء التحويل إلى جانب الفنون الأخرى من أنساب العرب وأيامهم ، ثم ما لا بد من معرفته هناك عن السيرة النبوية وغزوات الرسول ﷺ . وبين مراجع هذه العلوم متون منظومة تبلغ المئات من الأبيات .. ومن هنا كان مانعه في حديث الشيخ طيب الله ثراه من تبحر في أنساب العرب وعلاقتهم قبائلهم وأيامهم ، بصورة تعني عن الرجوع إلى مختلف الأسفار .

ولم يقف الشيخ رحمه الله عند درومن آله ، الذين كانوا مثابته الأولى ، فجعل يتصل بآخرين من علماء القبيلة ، فيتلقى عنهم ما ينقصه أو يزيده قوة من مختلف الفنون ، كالتحو والصرف والبلاغة والأصول والتفسير وفنون الحديث .

وكان على الشيخ رحمه الله ألا يكتفي بما يتلقاه عن شيوخه وشيخاته ، فراح يكتب بنفسه على مختلف الأسفار في ما درس وما لم يدرس ، ومن هنا توافر له ذلك التضلع الملوس في علم المنطق وأصول البحث والمناظرة مما لا يكاد يضاهيه فيه إلا الأقلون .

مناهج طريقة :

ويحدث الشيخ غفر الله له عن مسلكه التعليمي أيام الطلب ، فيعرض لنا صورة حية عن بعض أولئك الشيوخ الذين يقفون أنفسهم على نشر العلم في أواسط تلك القبائل .

إن الواحد من هؤلاء ليتنقل من حي إلى آخر في سبيل نشر ما يحمله من العلم ، فإذا آنس من قوم رغبة نزل فيهم ، وأقبل عليه الطلاب ينهلون مما عنده ، دون أن يكلفهم شيئاً ، بل المأوف أن ينفق على المحتاجين منهم إذا كان ذا يسار ، ويسمون الشيخ من هؤلاء (مرابطاً) وما أصحها تسمية .. إذ هو كالمرابط في سبيل الله لا عمل له إلا تغذية القلوب بما يحييها ، وتزويد النفوس بما يهدى بها ويصونها من مزالق السوء .

ومن الأصول المعهودة في هذه المدارس – القاعدة في الهواء الطلق – أن يقسم الشيخ طلبه بجموعات ، لكل واحدة دروسها المناسبة في أوقاتها المحددة .

وما يسترعي الانتباه في هذه المناهج أن لا يجمع الشيخ على تلميذه أكثر من فن واحد ، فإذا بدأه استمر فيه حتى يستكمله ، ومن ثم ينتقل إلى سواه ... وهكذا دواليك .

والطالب يجمع بين القراءة والكتابة جمعاً ، فهو يكتب الجزء المطلوب من

متن العلم المراد على لوحه الخاص ليقوم بحفظه ، فإذا فرغ منه م جاء وأتبعه بالجزء الآخر كتابة فحفظاً ، حتى إذا استوفى المكلف حفظه أقبل على الشيخ يتلقى شرحه وفق ما يحتمل .. وبذلك لا يكاد الطالب الجاد يفرغ من مقرراته حتى يكون قد تمتها تصوراً وإملاء وفهمًا .

ولا جرم أنها صور طريفة من المناهج يستغرقها القارئ الذي يعلم أن الدراسة قد استحالـت هذه الأيام إلى ضرب من الإرهـاـن ، الذي لا يتوقع من ورائه أي مردود علمي صحيح .

إنـاـ المناهج تـقـلـلـ الطـالـبـ بـجـمـلـ مـقـرـرـاتـهاـ الـيـوـمـيـةـ ، وـتـقـضـيـهـ مـنـ الجـهـودـ مـاـ يـذـهـبـ بـصـحـتـهـ ، وـرـبـاـ بـعـقـلـهـ أـيـضاـ . وـعـلـيـهـ أـنـ يـلـتـهـمـهاـ جـيـعـاـ ، وـيـتـقـيـأـهاـ جـيـعـاـ ، وـإـلـاـ كـانـ مـنـ الرـاسـبـينـ الـحـرـوـمـيـنـ ، الـذـيـنـ لـاـ حـقـ لـهـ بـأـيـ عـمـلـ رـسـمـيـ .

وـمـنـ هـنـاـ ، مـنـ الفـرـقـ بـيـنـ الطـرـيـقـتـيـنـ ، جـاءـتـ الـفـرـوـقـ الـكـبـرـىـ بـيـنـ ثـرـاتـ كـلـ مـنـهـاـ ، فـإـذـاـ كـانـ مـنـ طـبـيـعـةـ الـأـوـلـىـ تـخـرـيـجـ الـعـلـمـاءـ ذـوـيـ الـعـقـمـ وـالـتـحـقـيقـ فـنـ شـأنـ الـأـخـرـىـ تـخـرـيـجـ الـمـوـظـفـيـنـ ، الـذـيـنـ لـاـ يـكـادـونـ يـؤـدـونـ اـمـتـحـانـ الـمـقـرـرـاتـ حـتـىـ يـفـارـقـوـهـ إـلـىـ غـيرـ رـجـعـةـ .. إـلـاـ مـنـ مـيـزـهـ اللـهـ بـمـوـهـبـةـ خـارـقـةـ ، أـوـ أـحـاطـهـ بـبـيـئـةـ صـالـحةـ ، تـحـبـبـ إـلـيـهـ اـكـتـشـافـ الـجـهـولـ مـنـ عـوـالـمـ الـعـلـمـ .

وـلـاـ بـدـ مـنـ مـلـاحـظـةـ أـنـ تـلـكـ الـمـنـاهـجـ الـغـرـيـبـةـ عـمـاـ نـعـهـدـهـ الـيـوـمـ فـيـ الـمـارـسـ وـالـمـعـاهـدـ وـالـجـامـعـاتـ ، إـنـاـ هـيـ بـقـيـةـ مـعـدـلـةـ مـنـ أـسـالـيـبـ الـتـعـلـيمـ الـتـيـ تـكـوـنـتـ فـيـ ظـلـ الـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ ، إـذـ بـدـأـتـ فـيـ الـمـسـاجـدـ حـلـقـاتـ ، ثـمـ تـحـولـتـ فـصـوـلـاـ فيـ الـمـنـشـأـتـ الـخـصـصـةـ لـلـعـلـمـ .. فـأـدـتـ مـهـمـتـهاـ كـامـلـةـ بـإـعـطـاءـ الـعـالـمـ أـعـاظـمـ رـجـالـ الـفـكـرـ فـيـ نـطـاقـ الـدـنـيـاـ وـالـدـيـنـ .

بـواـكـيرـ مـبـشـرـةـ :

وـنـعـودـ إـلـىـ جـهـادـ الشـيـخـ فـيـ طـلـبـ الـعـلـمـ ، حـيـثـ يـرـوـيـ لـنـاـ تـلـمـيـذـهـ عـنـ لـسانـهـ أـنـ أـهـلـهـ لـاـ آـنـسـواـ مـنـهـ اـسـتـعـادـهـ لـذـلـكـ وـجـهـوـاـ إـلـيـهـ عـنـيـتـهـ ، فـزـوـدـوـهـ بـمـاـ يـعـيـنـهـ

عليه ، فقدم على بعض المشايخ من عرّفوا بسعة العلم ، وحين سأله الشيخ عنـه
فائلًا : من هذا ؟ أجاب مرتجلًا :

· · · · ·

إذ شام برق علوم نوره استعلا
تكسو لسان الفقى أزهاره حلا
ألا يميز شكل العين من (فعلا)
بـ (الحمد لله) لا أبعي به بـلا
هذا فتى من بني جا كان قد نـزا
رمـت به هـمة عـلـيـاء نـحـوكـمـ
فـجـاءـ يـرـجـوـ رـكـامـاـ منـ سـحـائـبـهـ
إـذـ ضـاقـ ذـرـعـاـ يـمـهـلـ النـحـوـثـ أـبـيـ
وـقـدـ أـتـىـ الـيـوـمـ صـبـتاـ مـوـلـاـ كـلـفـاـ

فهو يمدح الشيخ بالإشارة إلى ما اشتهر به من العلم ، ويفخر بنسبه وعلوهـتهـ ،
ويعرض حاجتهـ إلى علم الصرف ، حـاـصـرـاـ مـطـلـبـهـ بـلـامـيـةـ الـأـفـعـالـ الـمـبـدوـةـ
بـحـمـدـ اللهـ .

وقد حذفنا عجز البيت الأول لعدم وضوحـهـ بسببـ الروايةـ - علىـ الغـالـبـ -
ويلاحظـ منـ أـسـلـوبـ النـصـ أـنـهـ حـاـوـلـهـ أـولـيـةـ فيـ النـظـمـ ، تـجـريـ علىـ لـسـانـ فـتـىـ
لـاـ يـرـازـالـ فـيـ طـوـرـ الـحـداـثـةـ ، فـتـمـ عـنـ اـسـعـادـ صـالـحـ لـتـقـدـمـ .

وـشـغـلـ الفتـىـ بـحـبـ الـعـلـمـ عـنـ كـلـ مـاـ عـدـاهـ ، فـلـمـ فـوـتـحـ فـيـ أـمـرـ الزـوـاجـ لـمـ يـتـرـددـ
فـيـ إـيـشـارـ الـعـلـمـ وـالـدـوـاـةـ عـلـىـ العـذـارـيـ الـفـاتـاتـاتـ :

غـدـاءـ تـزـوـجـتـ . بـعـضـ المـلاحـ خـلـوبـ الـلـفـظـ جـائـلـةـ الـوـشـاحـ تـذـيقـ الـقـلـبـ أـلـوـانـ الـجـراـحـ مـنـ الغـيـ الصـرـاحـ الـيـوـمـ صـاحـيـ كـأـنـ وـجـوهـهـ ضـوءـ الصـبـاحـ بـرـاقـعـ مـعـانـيـهـ الصـحـاحـ	دـعـانـيـ النـاصـحـونـ إـلـىـ النـكـاحـ فـقـالـواـ لـيـ تـزـوـجـ ذاتـ دـلـ كـأـنـ لـخـاطـهـاـ رـشـقـاتـ نـبلـ فـقـلـتـ لـهـمـ دـعـونـيـ إـنـ قـلـيـ وـلـيـ شـغـلـ بـأـبـكـارـ عـذـارـيـ أـرـاـهـاـ فـيـ الـمـهـارـقـ لـابـسـاتـ
--	--

إنهـ مشـغـولـ بـتـعـةـ الـعـلـمـ عـنـ الـأـنـسـ بـالـزـوـجـةـ ، حتـىـ ليـصـرـفـهـ التـكـيـرـ بـالـعـمـانـيـ
الـغـوـامـضـ عـنـ حـاجـةـ نـفـسـهـ ، الـقـيـ هـيـ أـشـدـ مـاـ تـكـوـنـ تـقـتـحـمـ إـلـىـ ذـلـكـ الـأـنـسـ .

ولا جرم أنها طلائع حياة لا يستغرب أن تكون حافلة بروائع التفوق الذي لم يلبث أن تجلى في ذلك الاستيعاب الموسعي الذي لا نعرف له مثيلاً في غير الكبار من أساطين العلوم الذين نقرأ عنهم ونقرأ آثارهم .

الشيخ القاضي :

لا يزال لعلوم الشريعة قيمتها الرفيعة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي ، فحملة هذه العلوم هم مرجع الناس في كل ما يعترضهم من مشكلات يومية ، يسدونهم إلى المسلك الأقوم ، ويفتونهم في ما اختلفوا فيه من الحق .. وبذلك ينهضون بهمة الإفتاء والإرشاد ، ويحملون عن القضاة كثيراً من أعبائهم .. وطبيعي أن يكون ذلك في البداية أوسع انتشاراً وتركيزاً منه في الحواضر ، ومن هنا كان لشيخنا، تغمده الله بواسع الرحمة، مهامه الكثيرة في ذلك الوسط ، الذي يعتبر فيه العالم مرجع الكافة في كل شيء .. فكان المفتى والمرشد والواعظ والمصلح والقاضي .. يتلقى إليه الخائفون فيستكتبهم الإقرار بقبول حكمته ، ثم يثبت اعترافات كل من الخصوم على حدة ، وبيانها ردود الغريم ، ثم يصدر حكمه معللاً مؤيداً بالأدلة الشرعية من مذهب مالك .. فإذا وصل حكمه إلى المشايخ صدقوه ، وإذا رد إلى الحكماء نفذوه دون تردد .. وكان يقضي على هذا النحو في كل قضية تعرض لديه إلا الدماء والحدود ، إذ كان للدماء قضاها الخاصة في أنظمة السلطة الفرنسية ، فمحاكمتها هي التي تنظر في كل ما كان ذاتصلة بهذا الأمر ، فإذا انتهت حكمتها إلى الإعدام عرضته السلطة الختصة على (لجنة الدماء) وهي مؤلفة عادة من اثنين من كبار علماء الشريعة ، وعلى موافقة هذه اللجنة يتوقف تنفيذ الحكم .. وكان الشيخ أحد هؤلاء العلماء المعتمدين لأعوام طويلة .

رحلة الحج :

شاء الله أن يبدأ الشيخ مرحلة جديدة من حياته المباركة ، فازمع القيام بأداء فريضة الحج ، ولا ندري لم آثر أن تكون رحلته عن طريق البر دون غيره من وسائل السفر .. ولعل ذلك عائد إلى أمرين أحدهما ألفته ظهور الإبل ، التي قضى معها العشرات من سنينه حتى خالطت آثارها كيانه ، فهو حتى بعد استقراره في مدينة المصطفى ، صلوات الله وسلامه عليه ، واستعماله السيارة في تنقلاته ، لا يبارحه الحنين إلى ذلك العهد .. وما أدرى كم من حجة أداها على متن البعير ، ضاحي الرأس للشمس ، التي طالما ألفها في صحراء شقيقه .

والمحاطون للشناقة عن كثب يمسون احتفاظهم بالكثير من طوابع بيئتهم الأولى ، منها طال بعدهم عنهم وفراهم لأهلهما .. وقد لاحظت امتيازهم بهذه الخاصة على سائر جيرانهم من الأفارقة ، حتى في ثيابهم والألوان التي يؤثرونها لها .. وفي المدينة غير قليل من مهاجريهم لا يكادون يفارقون أزياء الصحراء التي انتقلوا عنها .. فثوب الرجل منهم صورة من الخيمة التي ألفها هناك : قطعة فضاضة من القماش المصبوغ بالزرقة ، شق أعلىه لإدخال الرأس ، وأسبغ سائره على الجسم فوق السراويل ، وقد احتفظ بفتحتين متبدلتين على جانبيه لتسرب الهواء ، كما تحفظ خيمة الباية ببابين متقابلين للفرض نفسه .. ومع أن أهل العلم منهم شيوخاً وطلاباً قد يعدلون في أواثفهم فيقتربون من الثوب الحجازي ، إلا أنهم لا يستنكفون أن يراجعوا ثوبهم الموروث بين الحين والآخر . وقد ساعدتهم ذلك على الاحتفاظ بالكثير من خصائصهم التوارثية ، كما أسلفنا ، وبذلك يختلفون عن سائر الأفارقة ، وبخاصة الشباب ، الذين يسارعون عادة إلى اقتناء أزياء الأوروبيين - أعدائهم التقليديين - حتى في أشكالها البعيدة عن الذوق المسلم ، ولا يستثنى من ذلك كثرة الطلاب الأفارقة في الجامعة الإسلامية ، على الرغم من كل الموارع التي توجه إليهم في ذلك .

على أن هذه الميزة - ميزة المحافظة على الخصائص الموروثة - قد بدأت تتقلص في حواضر موريتانية هذه الأيام، وبخاصة العاصمة نواكشوط - كما أخبرنا الثقات منهم - فلا غرابة ، والحالة هذه ، أن يكون إيثار الشيخ ، رحمه الله ، طريق البر وظهور الإبل في تلك الرحلة يدافع عن هذه الطبيعة الأصلية .

أما ثاني التعليلين فلا أستبعد أن يكون مرده رغبة الشيخ الأمين في لقاء العلماء ، وتعرف معالم الديار الإسلامية التي تقتضيه الرحلة الطويلة أن يتبعها مرأً .

والمؤسف أننا لا نعرف الكثير عن انبطاعاته أثناء هذه الرحلة . ويفهم من محاضرة لتلميذه الشيخ عطيية أنه (كتب فيها أوراقاً ضمنها مباحث جليلة) وقد رکز فيها على مشكلات أثارها معه بعض علماء أم درمان في المعهد العلمي بالسودان حول (مبحث القضايا الموجهة في المنطق) .

وقد سمعنا بعض أخبار هذا الحوار منه رحمه الله ، وخلاصته أن بعض الإشكالات في هذا الأمر كانت تعتبرى أولئك الفضلاء ، فكان لحواره معهم يومئذ أثره الطيب في جلائهم ، ونصرة المنهج المنطقى في أصول البحث . ولا غرابة فهو من أشد أنصار المنطق ، يرى فيه المعيار الذي لا يكاد يخطئ في الاستدلال على الحق .. والقارئ يوعي بمؤلفات الشيخ وبخاصة تقسيمه الشهير باسم « أصوات البيان ... » يلمس هذه الخاصة أوضح ما تكون الفِكَر من البروز .

حديث في الشعر :

وتعمل المقادير الحكيمية عملها في تحركات الشيخ والأعداد لمصيره الجديد .. فإذا خيمته في مني أو عرفات يحيوا حرية الأمير خالد السديري دون علم من أي منها .. وتدرج الحديث بالأمير وجلساته إلى بعض الشعر . ويظهر أن بيته قد أشكل على المتحدثين فرأوا أن يسألوا جاره عنه ، وربما دفعهم إلى ذلك

كلام سبق أن سمعوه من الشيخ يسامر به من معه فتوسوا فيه العلم .. وكان هذا مقدمة لمسيرة ظلت حتى وفاته .. ذلك أن الشيخ على دأبه في قضيابا العلم ، لا يكتفي بالجواب الأولي في موضوع ذي أصول وفروع ، وعلى هذا لا بد أن يكون قد تناول مفردات البيت ومدلولاتها اللغوية ، وما ورد في البيت من الروايات المختلفة ، والمناسبة الباوعة عليه ، وما يتصل به من شواهد في الشعر الجاهلي والإسلامي ، وفي القرآن والحديث ... مما لا بد أن يكون قد أخذ على السامعين انتباهم واستثار إعجابهم . وكفى بهذا حافزاً للتشبت بالشيخ ، وبخاصة في هذه الديار التي لا يزال كثير من سرتها وأولي أمرها لا يجدون ريقفسهم إلا في التراث الخالد ، الذي يشدهم إلى أرحام العروبة والإسلام .

موجة جديدة :

وكان في نفس الشیخ غیر قلیل من رواسب الشوائب الملحقة بدعوة الإمام الجدد محمد بن عبد الوهاب، تلقاها أيام الطلب، ومن أقواله الرواية غیر المحققین. ولم يكن يومئذ بحاجة إلى غربلة هذه الأخبار أو التدقیق في مواردها ومصادرها، فاكتفى بما وجد شیوخه عليه.. غير أنه ما لبث أن اصطدم بالواقع الذي لا يلت إلى ما في ذهنه بأي صلة. ولا مفر من التركيز أولاً على مشاهد الحج، فهي أكبر معرض لأحوال العالم الإسلامي، في أي جانب من حياته، ولا سيما من حيث القبیدة.. ورجل في مثل توقد الشیخ لا يفوته تقویم الواقع، والتفرقیق بين أعمال الناس من حيث صلتها بالأصول الشرعیة. ثم جاءت لقاءاته مع بعض المشايخ في الحرمين، ولا سيما في مسجد الرسول ﷺ حيث طاب له المقام.. ولأول مرة - كما يظهر - يتألم للشیخ الأمین أن يطلع على كتاب «المقنى» لابن قدامة، وهو الموسوعة الخنبلية الكبرى. ثم بعض مؤلفات شیخ الإسلام ابن تیمیة وتلمیذه الإمام ابن القیم، وبعض رسائل الإمام الجدد الشیخ محمد بن عبد الوهاب.. وكان هذا كافیاً لتحرير عقل الشیخ من الشوائب الدخيلة جیساً.. وإذا هو من أشد العلماء اندفاعاً في الدعوة إلى

مذهب السلف ، وتنقيته من كل زائف أو دخيل ، وبخاصة في نطاق العقيدة والأسماء والصفات التي أثبتها الله لذاته ورسوله .

يقول المعاصر في ذكرى الشيخ : « كان لا بد - للشيخ - من دراسة بقية المذاهب يجانب مذهب مالك ، وبما أن الخلاف المذهبي لا ينبع إلا الحديث والقرآن كان لزاماً عليه التوسع في دراسة الحديث .. » وإن فقد بدأ إقبال الشيخ على التفقه بالحديث الشريف منذ أن عزم على الاستقرار في هذه الديار . وليس معنى ذلك أنه كان في معزل عن هذا العلم .. وكيف وقد كان أحد التابع الذي لا بد لطالب العلم أن ينهل منها في منازل القبائل الموريتانية .. إلا أن الفرق يظل واسعاً بين دراسة الحديث كفن ودراسته كأحد مصادر الأحكام ، وكضابط لسلوك المسلم إلى التي هي أقوم . ومن هنا بدأت المرحلة الجديدة في حياة الشيخ .

وجاءت التابعية السعودية في استحياء إلى الشيخ ، واستقر عزمه على زوم هذه البلاد ، لقربه من الحرمين اللذين أكرمنا الله بهما ، ولأن العلم الذي ينطلق منها يأخذ طريقه إلى العالم الإسلامي كله . وعملاً بتوجيهات المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود جعل من تفسير كتاب الله في مسجد رسول الله مهمته الأولى .

في مسجد النبي ﷺ :

كانت دروس الشيخ رحمه الله في مسجد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، حلقة من سلسلة النور ، بدأت بأضواء الوحي تننزل على خاتم النبئين ، ثم تتبعها قبسات من ذلك الشعاع يحملها إلى طلاب الخير رجال كانوا في الأرض بثابة الكواكب في السماء ، تهدي الضال ، وتقوم الأعوج ، وتحسي الموات .

وقد أكرمني الله فشهدت أول درس له في أحد فصول كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية أثناء حجتي الأولى عام ١٣٨٢ هـ . وكان في التفسير فوددت ألا ينتهي ،

وكان ثمة عميد لإحدى الكليات الشرعية في إيران ، فلم يتالك أن ينهض ليتلقى خطبة قصيرة لخُص فيها انطباعاته العميقه عن ذلك الدرس العميق . ثم تالت نعم الله عليّ وفي رأسها هجرتي إلى طيبة الحسينية مدرساً في هذه الجامعة ، فقيض لي بذلك أن أحضر العديد من دروسه في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم .

ومن العقوق لحقوق العلم أن يمر الكاتب بدرس الشيخ هذه دون أن يعطي القارئ صورة وافية عنها ولو بمنتهى الإيجاز .

‘تفتح حلقة الدروس بأي من السورة المقصود تفسيرها ، يتلوها أحد تلاميذ الشيخ ، فإذا فرغ القارئ ، شرع الشيخ في عمله ، فبدأ بالفروقات يعرض معاناتها ومشتقاتها وكل ما يتصل بها من قريب أو بعيد ، مستعيناً على ذلك بما لا يخص من شواهد اللغة ، ومن ثم يتناول العلاقات التركيبية بين الفروقات ، فيعرض لضروب القراءات الواردة فيها ، ووجوه الإعراب وما تقرره من المدلولات .. فإذا انتهى من ذلك صرف الأذهان إلى الاستنباط الفقهي ، وما ذهب إليه أصحابه من أشتات المفهوم ، مقارناً معلمًا مقرراً .. مستعيناً على ذلك بكل ما يتطلبه المقام من علوم اللسان والبيان والأصول والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ، وما يتصل بذلك من الإطلاق والتقييد . ولا يفوته أن يربط بعض المعاني ببعض الواقع الماثلة على صورة ‘تراث المعرفة ، وتعمق أسباب الإقناع .

وإذا كان المضمون قصصياً عمد إلى عناصر القصة ، فاستخرج عبرها ، وكشف ‘نذرها ، وقاد ما فيها من صور الماضي على ما يعيشه الناس من أحداث الحاضر .

حتى إذا بلغ الدرس غايته انقض الحشد المترافق ، وقد أخذ كل منه بقدر طاقته .. فلا يفوت خيره العامي ، ويزود المثقف المعمق بما هو أحوج ما يكون إليه .

الحق أن الشيخ الأمين كان في هذه الدروس بحراً لا يدرك البصر شاطئه .. وحججة لا ترد على أن هذا القرآن مأدبة الله لعباده ، وأنه كما ورد في الأثر : « فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى المدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلامة ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تقضى عجائبه » .

ووراء ذلك كلها ذاكرة لم تضعف من قوتها السنون ، تمده بسيل من المحفوظات المنظمة المنسوبة ، وتساعده على الربط المحكم بين أول البحث وأوسطه وأخره .. كل ذلك في لغة عالية ، لا تسمع فيها لاغية من لحن أو سوقية ، كما يخلو لبعض المدرسين أن يتطرق بعامّيته حتى في فصول الجامعة . وبهذه الذاكرة يقدم درسه في الفصل أو في المسجد ، أو في المجلس المترجل ، فلا يحتاج إلى تحضير ولا تفكير ، حتى لكتابه ، وهو يلقي عن ظهر قلب ، إنما يتلو في كتاب ، أو يغترف من عباب .

وصحبـتـ الشـيخـ سـنـينـ فـيـ مجلـسـ الجـامـعـةـ فـلـمـ يـخـتـلـفـ عـلـيـ "ـأـمـرـهـ"ـ إـنـهـ هـوـ نـفـسـهـ الـذـيـ أـعـرـفـهـ فـيـ قـاعـةـ الـأسـاتـذـةـ ،ـ وـ فـيـ مجلـسـ الـعـلـمـ ،ـ وـ فـيـ حـدـيـثـهـ الـخاصـ حـيـثـاـ لـقـيـتـهـ .

لقد كان مجلسنا - لإدارة الجامعة - لا يخلو من مذاكرة في العلم ، دون تفرقـ بينـ قـضاـياـ الدـينـ وـشـؤـونـ الدـنـيـاـ .ـ وـ لـاشـكـ أـنـ لـلـشـيـخـينـ:ـ الـأـمـيـنـ الشـنـقـيـطـيـ قـولـاهـ اللـهـ يـرـحـمـهـ ،ـ وـ عـبـدـ العـزـيزـ بنـ باـزـ ،ـ ثـمـ الشـيـخـ الدـكـوـرـ مـحـمـدـ تقـيـ الدـيـنـ الـهـلـاـيـيـ أـمـدـ اللـهـ فـيـ حـيـاتـهـ ،ـ أـثـرـاـ لـاـ يـنـسـىـ فـيـ روـحـانـيـةـ تـلـكـ الـجـلـسـاتـ ،ـ الـيـ كـانـ يـسـودـهاـ أـبـداـ جـوـ الـجـدـ وـ الـوـقـارـ ،ـ وـ التـعاـونـ عـلـىـ كـلـ مـاـ يـحـقـقـ الخـيـرـ لـلـجـامـعـةـ ،ـ وـ للـعـالـمـ الإـسـلـامـيـ بـأـسـرـهـ .ـ وـ مـاـ أـحـسـبـ بـيـنـنـاـ -ـ خـنـ أـعـضـاءـ تـلـكـ الـجـلـسـ -ـ وـ اـحـدـ آـلاـ يـحـزـنـهـ فـرـاقـ تـلـكـ الـلـيـلـيـ الـتـالـلـقـاتـ بـأـنـوارـ الـحـبـ فـيـ اللـهـ ،ـ وـ الـعـملـ الـدـائـبـ

في طاعته سبحانه .. وبخاصة عندما يتذكر كيف مزق البين' وحدة الشمل ، فذهب بالشيخ الأمين إلى غير رجعة ، وانتهى بالهلالي إلى أقصى المغرب ، وصار ابن باز إلى الرياض ، وقد سبقه إليها قبيل ذلك أمين الجامعة الأديب الأريب محمد ناصر العبوسي :

وَكُنَا كِنْدَمَانِي جَذِيَّةً حَقَّةً مِنَ الدَّهْرِ حَقٌ قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَ
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأْنِي وَمَالِكًا لَطُولِ اجْمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لِيَةً مَعَا

وقد بات على كل منا أن يتوقع المصير الذي سبقنا إليه ذلك الأخ الحبيب الأثير ، رحمنا الله وإياه ، وقدر لنا لقاء لا ينفعه فراق أبداً ، مع النبيين والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقاً .

نشاطه العلمي :

قلت إني عرفت الشيخ لأول مرة عام اثنين وثمانين وثلاثة وألف يوم حضرت درسه بالجامعة ، ثم يسر الله لي الانضمام إلى جهاز التدريس بالجامعة في العام التالي ، ومنذ ذلك لم يفارق أينا بلد الهجرة ، ولم أفقد لقاء الشيخ في الجامعة أو المسجد أو دار الحديث أثناء الجلسات ، حتى فرق بيننا هادم الذات ومفرق الجماعات .. وملووم أن الجامعة قد فتحت أبوابها للدراسة منذ العام ١٣٨١ هـ . وكان الشيخ في الفوج الأول من العلماء الذين توّلوا التدريس بالجامعة ، أما قبل ذلك فقد كان منتصراً إلى الرياض حيث دعي عام ١٣٧١ هـ للتدريس في أول معهد علمي أنشأته الادارة العامة هناك ، ثم تلته معاهد فكليات للشريعة واللغة فتحول إليها ، ولبث يدرس فيها مادتي التفسير والأصول إلى سنة ١٣٨١ هـ . إذ أعيد إلى المدينة ليقول التدريس في الجامعة الإسلامية الحديثة دونغا انقطاع إلا لمرض ، وإلا لأنحبيين محدودة كان يستدعى فيها هو والعلامة ابن باز للمحاضرة في معهد القضاء العالي الذي استحدث في الرياض عام ١٣٨٦ هـ . برئاسة قضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي .

ولا حاجة للتذكير أن وجود الشيخ في الجامعة الإسلامية منذ إحداثها ، مضافةً إلى دروسه العامة في المسجد النبوى ، كان ذا أثر كبير في ذيوع علمه ومعرفة فضله . فقد قامت هذه الجامعة في وقت عصيب ، تعرضت خلاله كبرى مؤسسات التعليم الإسلامي العالمية لهزات سياسية ليست في صالحها .. وكانت وجهتها منذ اليوم الأول احتضان طلبة العلم من مختلف أرجاء العالم الإسلامي ، وبذلك أتيح له – كما أتيح لنا من بعد – أن يتصل بذلك العالم كله عن طريق أبنائه المؤلفين إلى هذه الجامعة .

فهناك دروسه القيمة في فصول الجامعة ، ثم دروسه العامة في المسجد النبوى ، ثم حاضراته التي يدعى لإلقائها في دار الحديث التابعة للجامعة أثناء المواسم الخاصة لهذه الحاضرات .. وهناك وفود الحجاج الزوار المتدقين أبداً على مدينة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وبينهم رجال العلم والفكر الذين لا يرون مندوحة عن الإمام بالجامعة ، وزيارة بعض فصوصها الدراسية للاطلاع على نشاط هذه المؤسسة الحديثة العالمية .. وقائماً يحضر وقد من هؤلاء إلى الجامعة ثم لا يشهد حاضرات الشيخ .. هذا إلى دروسه الأخرى التي يختص بها بعض أهل العلم في بيته ، وقد جعل مواعيدها بعد العصر من كل يوم إلا أن يحول دونها الحوائل القاهرة .. وفي بعض هذه الدروس المنزلية أملى الشيخ بعض شروحه ومؤلفاته التي ينعم بها الناس على اختلاف مستوياتهم .

وقد جرت عادة الجامعة من أوائل نشأتها إيفاد البعثات إلى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي لدراسة أحواها على الطبيعة .. وكانت إحدى هذه البعثات برئاسة الشيخ ، وقد بدأت بالسودان وانتهت بموريتانية موطنه الأول .. وحفلت بالكثير من نشاطه ، إذ كان موضع الحفاوة البالغة من حكام تلك الأقطار وعلمائها .. فلم يدع بلدًا من تلك الدول العشر إلا بذل فيها من علمه ما أخذ بالألباب ، حتى إن أحد أولئك الحكام ، وقد أراد أن يمحج布 عن عيني الشيخ ومن معه حقيقة الحكم الرحيم الذي يarserه في بلاده ، لم يكدر يفارقه

في حل ولا ترحال ، بل كان يحمله في سيارته التي يقودها بنفسه إلى الأماكنة (المعدة) لزيارته ... و ... حتى غادر حدود بلاده . وقد تهافت المشتغلون بالعلم على تسجيل معاشراته وأحاديثه ، حيث لا تزال تتنتظر من يجمعها وينشرها للناس في كتاب .

وما يندرج تحت نشاط الشيخ العلمي مشاركته في كبريات المؤسسات الإسلامية العالمية كرابطة العالم الإسلامي في مكة ، وهيئة كبار العلماء التي شكلت في الرياض عقب وفاة شيخها وصاحب فتواها المرحوم الشيخ محمد ابن إبراهيم حفيد الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب .

وقد عرف له ألوان الأمر في المملكة مكانته وفضله منذ أيام المغفور له الملك عبد العزيز ، الذي بأمر ملكي خاص أهدى إلى الشيخ هويته السعودية ، ولم يكتفى بذلك بل أمر بمنع التابعية لكل من يثق به وينتمي إليه ، مبالغة في إكرامه .

وفي مؤتمر العلماء الذي عقدوه في الرياض للبحث في موضوع الإمامة ، وقرروا فيه إلغاء بيعة الملك سعود بن عبد العزيز ، ومباعدة أخيه فقيد الإسلام والعروبة فیصل بن عبد العزيز ، إيهاراً للمصلحة العامة التي لم يكن أجدر من فيصل للقيام بأعبائها ، أثابوا عنهم الشيخ الأمين لإبلاغ قرارهم الملك سعود ، فقام بالمهمة خير قيام ، وكان لكلمته الحكيمية أطيب الواقع في نفسه ، عقب عليها بإعلانه ثقته التامة بنصيحة العلماء وخضوعه لقراراتهم .

ولا حاجة للتنبيه إلى أن مثل هذه الثقة التي أحرزها الشيخ في أوساط أولي الأمر وكبار أهل العلم إنما تدل على ميزات شخصية من النوع النادر ، بها استحق كل ذلك التقدير من عارفه .

وأشهد لقد لمست من هذه الميزات أثناء عملي معه في مجلس الجامعة ، واتصالني به في ما بين ذلك ، ما أكد لي أنه أحد الأفذاذ الذين يخشى

إذا فقدوا ألا يعوضوا . وإلى ذلك أشرت في هذه الأبيات التي وجهتها إليه ذات يوم تحت عنوان « قبس وينبوع » :

الله ذخراً وعصمة للجبارى
دامت يا شيخنا الأمين الدين
كان في ظلمة الوجود منارة
إنما أنت نفحة من تراث
هدى من بيانه لا يمارى
قبس من كتاب ربى وينبوع
ذكريتي (أضواوك) الغر أFDA
ذاً من السابقين فاقوا بالبحارا
أورثونا من فضلهم كل عالم
لم يسر قط كوكب حيث سارا
لو قضينا حياتنا ننعم الفكر
بأغواره لفاتت وخسارا
فليمتعك ذو الجلال بعمر
ييلأ الخصب ليته والنهارا
ود كل لو يستطيع له مدا
بشطر من عمره مختارا
كل طول في عمر مثلك طول
في قوى الحق يربك الكفارا
وكترون إن يعيشوا فلا خير
وكثرون إن يهلكوا فشر تواري

وليس من قبيل الإطراء المألف دعائي له بطول العمر ، وودي لو أغيره بعض عمري طمعاً بالمزيد من خدماته للإسلام ، فإني كنت شديد القلق عليه لما أرى من ظواهر الضعف في صحته ، وتماديه في هذا الضعف .. حتى لقد قلت له عصر يوم ونحن على باب عمر رضي الله عنه من المسجد النبوى ، ولاحظت الجهد الضخم الذي كان يبذله أثناء درسه العام : « يا شيخ .. إن صحتك ليست ملتك .. إنها للعلم والمسلمين ، فارفق بها ولا تعجل عليها » .

مؤلفاته :

لم يكن من المكثرين في التأليف ، لأن مشاغله العلمية في الدروس والمحاضرات وال المجالس العامة والخاصة ضيقـت عليه ذلك النطاق فلم يتيسر له الانقطاع إلى التأليف إلا قليلاً . على أن ما سجل وحفظ من كلامه لو نقل إلى الطروـس لألف قائمة من المؤلفـات . وحسبـنا أن نشير من مؤلفاته إلى ما يلي :

١ - «منع جواز المجاز في المتنزل للتعبد والإعجاز» وغرضه منه نفي ادعاء المجاز في أسماء الله وصفاته وإجراؤها على طريقة السلف دون تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه . كما يفعل بعض المتكلمين الذين يكادون يبطلون كل ما أثبت الله لذاته ورسوله في الكتاب والحديث الصحيح .

٢ - «دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب» ويريد به إيضاح ما قد يشكل على العاقلين ، وما يشيره بعض المشككين ، من توهם التعارض بين بعض وبعض من آيات الله .

٣ - كتاب في الأصول يشرح به «روضة الناظر» أحد المراجع المؤلفة في هذا الباب ، شرحاً جمع فيه بين أصول المذاهب الثلاثة : الحنبلية والمالكية والشافعية . وقد ألفه لكتلتي الشريعة والدعوة بالجامعة .

٤ - «أدب البحث والمناظرة» في جزأين وهو من مقررات الجامعة لكتلية الدعوة وأصول الدين .

٥ - «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» وقد أخرج منه ستة مجلدات كبار وصل بها إلى نهاية سورة (قد سمع) .

وهذا المؤلف الفخم أول أعماله الكتابية على موسوعته العلمية ، لا يكاد يدع شاردة من الأحكام إلا جمع لها الأدلة من مظان الوحي ، في تنسيق وتنظيم وقرآن يعطي أدق صورة عن أثر النطق في منهجه العلمي ، وقد أنفقت على طبعه ونشره مؤسسة ابن لادن . وتقوم الهيئات الإسلامية في المملكة بتوزيعه مجاناً ، ويؤمل أن يعاد طبعه أو بعض أجزائه النافية قريباً ليعم تفعه .

ولقد أجمع أهل العلم على تقدير الكتاب والإقرار بعظم فائدته ، وإن اختلف بعضهم معه في بعض الأمور الاجتهادية .

وكل هذه المصنفات مما أخرجه الشيخ للناس بعد هجرته إلى ربع الحرمين ، أما ما قبل ذلك فعدد من الأرجحيات على غرار المنظومات التي شب على دراستها

وحفظها ، ولم ينشر بعد منها شيء .. وقد ذكر منها تلميذه الشيخ عطية :

١ - « خالص الجمان » وقد خصها بأنساب العدنانين لقوله فيها :

سميت به بخالص الجمان في ذكر أنساببني عدنان

٢ - أرجوزة في فقه مالك خاصة بالعقود من البيوع والرهون ، ومطلعها:

الحمد لله الذي قد ندبا لأن نَمِيزَ البيع عن لبس الربا

٣ - ألفية في المنطق يبدأ بها بقوله :

حمدأً لمن أظهر للعقل حقائق المقول والمعقول

٤ - أنظومة في علم الفرائض ، أو لها :

تركة الميت بعد الخامس من خمسة محصورة في السادس

وهناك العديد من محاضرات الشيخ نشرت في رسائل مستقلة هي :

١ - آيات الصفات .

٢ - حكم التشريع .

٣ - المثل العليا في العقيدة والتشريع والأخلاق .

٤ - المصالح المرسلة ، أوضح فيها ضوابط الاستعمال بين الإفراط والتغريط .

٥ - حول شبهة الرقيق .

٦ - قبس من قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم .. » وقد ألقاها بحضور الملك محمد الخامس أثناء زيارته المدينة المنورة .

ولا مندوحة عن الإشارة إلى أن الشيخ ، أحسن الله جزاءه ، وقف مؤلفاته كلها لوجه الله ، لم يرد عليها جزاء إلا من ربه ، ولو شاء لساقت إليه المال الوفير الكثير .

نماذج من نثره :

يقول الشيخ ، تعمده الله برحماته ، في تقديم كتابه القيم « أضواء البيان » :
« ... اعلم أن من أهم المقصود بتأليفه أمران ، أحدهما : بيان القرآن بالقرآن
لإجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله ،
إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جل وعلا من الله .

والثاني : بيان الأحكام الفقهية في جميع الآيات المبينة في هذا الكتاب .
فإننا نبين ما فيها من الأحكام وأدلتها من السنة وأقوال العلماء في ذلك ،
ونرجح ما ظهر لنا أنه الراجح بالدليل من غير تعصب لمذهب معين ، ولا لقول
قائل معين ، لأننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله .. لأن كل كلام فيه مقبول
ومردد إلا كلامه عليه عليه السلام .

وقد تضمن هذا الكتاب أموراً زائدة على ذلك ، كتحقيق بعض المسائل
اللغوية ، وما يحتاج إليه من صرف وإعراب ، والاستشهاد بشعر العرب ،
وتحقيق ما يحتاج إليه فيه من المسائل الأصولية والكلام على أسانيد
الأحاديث ... »

وفي هذه الأسطر القليلة غير قليل من سمات المنهج الذي عرف به الشيخ في
تفسير كتاب الله ، وبحملها التركيز على استنباط الحكم الواحد من سائر مصادره
في الكتاب الحكيم ، والسنة المطهرة ، ثم بيان مفهومات العلماء لذلك ، ومن ثم
الترجيح للدليل الأقوى دون ما تعصب لأحد بعد كلام الله ورسوله .. ولا بد
أثناء ذلك من التحقيقات اللغوية وعرض الشواهد المساعدة على الإيضاح .

أجل إنـه المنهج الذي ألفناه في كتابه ومحاضراته وأحاديثـه الخاصة على
السواء ... ثم في هذه الأسطر كذلك صورة دقيقة من أسلوبـ الشيخ في التعبير
عن أفكاره ، فالنسـيج عـربـي قـعـدـ لم تـسـهـ العـجمـةـ ولاـ الـهـلـهـةـ ، وـهـوـ أـقـرـبـ إـلـىـ إـنـشـاءـ
الـصـرـ الأـمـويـ مـنـهـ إـلـىـ مـاـ بـعـدـهـ . وـطـرـيقـةـ العـرـضـ مـوـضـوعـةـ يـرـتـبـطـ فـيـهاـ الجـزـءـ
بـالـجزـءـ ، وـتـهـدـ العـبـارـةـ لـأـخـتـهـاـ ، وـذـلـكـ أـثـرـ المنـطـقـ الـذـيـ لـاـ يـكـادـ يـفـارـقـهـ .

ونماذج من شعره :

إن الفزارة في محفوظ الشيخ من شعر العرب دليل قاطع على تذوقه إياها ،
ولا بد للحافظ المتذوق أن تواثي الموهبة على صياغته .. وكذلك كان شيخنا ،
طيب الله ثراه . فهو رهيف الحس ، سريع التأثر بالكلمة البليغة ، وقد سبق
أن طالعنا بعض حماقاته الأولى فلمحنا ما وراءها من استعداد للاندفاع . إلا أن
انشغاله اليومي بالجوانب الأخرى قد أدى به إلى الانصراف عن الشعر الحالص .
ويقول تلميذه الشيخ عطيه إنه سأله عن السبب في تركه الشعر فأجاب : « لم أره
من صفات الأفضل » .

وإنما يريد بنفيه عن الأفضل ما يرى لبعض المتعاطفين له من زلات يربأ
بنفسه أن يتعرض لها ، لا كما فهمها بعض الجاهلين للشعر ، إذ اعتبره منافياً
لكرامة العلم ، وهو الذي لا يحسن إقامة البيت إذا حاول قرائته ، فليس لمثله
حق في الحكم عليه .

إضافة إلى ما أسلفنا من منظومات الشيخ نضع بين يدي القارئ هذه
الأبيات من قصيدة له يحدثنا بها عن عواطفه وطموحه :

شيبٍ يزيّنَ مقرقي كالتابع	أنقذت من داء الهوى بعلاج
شفة الفتاة الطفلة المفتاج	قد حصدني حلم الأكابر عن لمى
رمانتي روض كحق العاج	ماء الشبيبة زارع في صدرها
تناسب فوق جبينها الوهاج	وكأنما شمس الأصيل مذابة
فوق الحشية ناعم الديباج	يُعلى موقع جنبها في خدرها

ويضي الفقى الشاعر في حديثه النفسي ، مترجماً أشواقه المكبوتة إلى المرأة
التي لا ينكر تأثيرها في قلبه ، ولكنه يحاول أن يقصي طيفها عن محاجره ،
خشية أن تشغله عن (حلم الأكابر) الذي لا يتأتى لطالب الطفلة المفتاج ..
إنه في صراع بين العاطفة الملتدهة إلى الحب ، والعقل المتطلع إلى مجده العلم ..

ومع ذلك لا يستطيع كفان تلك الأشواق ، فإذا هي تعبّر عن ذاتها بهذه الصور الغزلة المغنية : اللمى . المفناج . الشبيبة . رمانتا الروض . الجبين الوهاج .

وفي (شمس الأصيل المذابة في الجبين الوهاج) صورة أخرى للذوق الذي يستهويه أثر شمس الباادية في وجوه الحسان .

ونحن لا ندري تاريخ هذه الأبيات ولكنها تحمل طابع النفس التي لم تزأيل الشباب - على الرغم من بوادر الشيب - ولا تزال معزولة عن أنس الرفيق الذي يهيب به إلى السكن والمودة والرحمة .

ولقد فاتتنا - ويا للأسف - أن تستطلع الشيخ رحمة الله رأيه في مستقبل الجيل الإسلامي ، والسبيل إلى بناء المجتمع الأمثل الذي يريد له الإسلام .. إذ حالت وفاته دون ذلك .. ولكن أفكار الشيخ التي ستظل حية بين الناس كفيلة بإعطاء الجواب القاطع المانع : إنَّه الالتزام بأحكام القرآن ، فكل الشر في الإعراض عنه ، وكل الخير في الإقبال عليه ، فطوبى لمن كان حجة له ، وويل لمن كان حجة عليه ... وإياك يا أخي ثم إياك أن يزهدك في كتاب الله تعالى كثرة الزاهدين فيه ، ولا كثرة المحتقرين لمن يعمل به ويدعو إليه ، واعلم أن العاقل الحكيم لا يكتثر بانتقاد الجانين ^(١) .

فاللهم رحمتك السابقة ، ومفترتك الواسعة لشيخنا وأخينا وزميلنا عبدك محمد الأمين ، وأحسن به العوض للإسلام وال المسلمين .

(١) أضواء البيان ج ١ ص ٢ .